# خصائص الإنسان في القرآن الكريم

بقلم

الأستاذ الدكتور

عبد المعطي محمد بيومي

## ما الإنسان :

إنه سؤال يبدو أحيانا سهلا ميسر الجواب لكل من أراد، مهما كان حظه من الثقافة كثيرا أو قليلا ، فالإنسان هو أنا ، وأنت ، وهو ، وهى ، وسائر ما نرى من الناس .

لكن الأمر ليس بهذه السهولة فى حقيقة الأمر ؛ لأننا فى الحقيقة لا نسأل فقط عن الإنسان الظاهر ، أو الكيان المشاهد .

بل نسأل عن حقيقة هذا المخلوق فى أعماقه وملكاته وكافة استعداداته ونزعاته ، وخصائصه التى تملى عليها واجباته وتحدد دوره فى الحياة .

والسؤال بهذا الاعتبار ليس ترفا فكريا يمكن أن نريح أنفسنا من عنا السؤال عنه. بل هو أمر جد خطير لأنه يتعلق به أمر المنهج ، إذ الجواب عنه يتعلق به بوضع المنهج الاجتماعى والاقتصادى والأخلاق وسائر المناهج التى يمكن أن توضع لتنظيم الحياة الإنسانية بما فيها من حاجات للأفراد وعلاقات متبادلة بينهم ، على تعدد هذه الحاجات وتشابك تلك العلاقات .

فكلما فهمنا حقيقة الإنسان استطعنا أن نضع له التنظيم الذى يتناسب مع هذه الحقيقة وكلما أخطأنا فى معرفة الحقيقة الإنسانية انعكس الخطأ على ما نضع من تنظيمات ومناهج لا تنتج هى الأخرى إلا ضلالا وتخبطا فى الحياة البشرية .

ولما كانت معرفة حقيقة الإنسان على هذه الدرجة من الأهمية ، فقد كانت منذ القدم وحتى الآن محل عناية الفلاسفة الذين حاولوا أن يصلوا إلى أغوار النفس البشرية لمعرفتها وتحليلها ، وقد قيل إن معرفة الإنسان هى





المدخل إلى معرفة الوجود وكل شىء فيه من نظم وقيم وضوابط وقوانين .

ولذلك جعل « سقراط » هدف المعرفة بجميع أنواعها ، وجعل غاية الحكمة معرفة النفس فى كلمته المشهورة التى تمثل خلاصة فلسفته « اعرف نفسك بنفسك » .

ولكن معرفة النفس مع ذلك ظلت غاية بعيدة المنال على الفلاسفة لأن حقيقة الإنسان غامضة شديدة التعقيد . تستعصى على العقل البشرى أن يحيط بأسرارها وأبعادها فالروح والعواطف والاستعدادات والنزعات، وسائر ما يملأ الكيان الإنسانى كلها أمور تستعصى على العقل وتستلزم منه قدراً كبيراً من الجهد من أجل الفهم والإدراك .

وقد عبر عن هذه الصعوبة كثير من العلماء والباحثين مثل ما فعل الدكتور الكسيس كاريل فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » .

ولذلك لم يكن عيبا أمام هذا الغموض أن تعجز المدارس الفلسفية والاجتماعية والنفسية التى حاولت أن تعرف الإنسان فتطيش أحكامها وتتعدد وتتضارب فيما بينها كالشراع التائه فى عرض المحيط، أو الأجنحة المتكسرة فى وسط الفضاء ،

فالمناطقة الذين يضعون المقاييس ويحددون التعريفات ويعنون كل عنايتهم بالحدود الجامعة المانعة عرفوا الإنسان بأنه: حيوان ناطق .

ولكننا مع تقديرنا لهذا التعريف فإننا نراه فى حاجة إلى مزيد من الشرح والبيان فهو تعريف أشبه أن يكون تعريفا رمزيا يرمز فيه بالنطق إلى شىء آخر غير ما يقصده المعنى الظاهر، إذ أن المراد ليس النطق باللسان، فهناك من الكائنات الأخرى ما يشارك الإنسان فى خاصة النطق الذى هو

مجرد إحداث الصوت ، كما ورد فى القرآن الكريم على لسان سليمان عليه الصلاة والسلام « علمنا منطق الطير »[١] .

كما أن من الكائنات من ينطق بلغة الإنسان كالببغاء .

لذلك ليس المراد من النطق البيان اللغوى كما تقول الدكتورة بنت الشاطىء فى تفسير قوله تعالى « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان[٢] » ، إذ تقول :

« ولا تسيغ اللغة العربية إسناد البيان بمفهومه الخاص إلى حيوان أعجم أو جماد .

ومن هنا كان اختيار لفظ البيان للمصطلح البلاغى من قيمة القول الذى هو من خصائص الإنسان وحده .

وتقول عن اختصاص الإنسان بالبيان إنه « ليس قاصرا على اقتداره عليه دون الحيوان الأعجم بل يتسع مفهوم ذلك الاختصاص فيشمل انفعال الإنسان بالبيان وتذوقه إياه وإدراكه لواقعه المسيطر على منافذ التأثير ، وهو أداؤه فى التعبير المبين ووسيلتنا إلى ممارسة قدرته على التفكير وأهليته للعلم التى استحق بها أن يكون خليفة الله فى الأرض ».

وإذا كان الإنسان يمتاز على بقية أفراد الحيوان ببيانه وكلامه المعبر المفيد فإن أبرز أدواته فى هذا البيان والتعبير هى اللغة ، كما يقول الدكتور عمر الشيبانى[٣] ومع هذا فإننا نقول إن اللغة والبيان ليسا هما الفيصل

---

(١) سورة النمل ١٦

(٢) د. عائشة عبد الرحمن ( بنت الشاطىء ) « القرآن وقضايا الإنسان » ص ٥٥ ، ٥٩ دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٢ »

(٣) د. عمر الشيبانى مقدمة فى الفلسفة الإسلامية. ص ١١٢ الدار العربية للكتاب. ليبيا و تونس





الذى يعرف الإنسان ويفرق بينه وبين الكائنات الحية فقد أثبت العلم الحديث أن لكل كائن لغة يبين بها عما فى نفسه ويفهمها بنو جنسه .

وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى : « إذ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » مما يثبت أن النمل وغيره من الكائنات الحية له لغة يتعامل بها وأن اللغة ليست خاصية من خصائص الإنسان اللهم إلا إذ أريد اللغة الإنسانية وهى لا تكون إلا تعبيرا عن خاصة أخرى هى خاصه التفكير وجمع المدركات الجزئية واستخراج الحقائق الكلية منها

وبذلك يكون المراد من النطق : التفكير والإدراك .

وحتى نصل إلى هذه النتيجة لا بد من الاحتراز عن مجرد الإدراك ، إذ أن أكثر أفراد الحيوان لديها شىء من الإدراك والحس أو ما يسميه البعض الإلهام .

فالكلاب المعلمة تمتلك قدرا كبيرا من ملكة الإدراك والمقارنة والتحديد والتفرقة بين المتماثلات ولكن إدراك الانسان العام لمن حوله لا يقتصر على مجرد انطباع حواسه بألوان وأصوات وما إليها بل هو إدراك لا بد له من شىء آخر وراء هذه المحسوسات لينظمها ويرتبها ويعمل بها بحيث تصبح المعرفة علمية معقولة[١] .

وهكذا نخلص إلى أن تعريف المناطقة للإنسان رغم دقته ، يحتاج إلى

---

(١) زكى نجيب محمود : فلسفة وفن . مكتبة الأنجلو المصرية ص ٣٩-٤١ طبعة ٧٣ وانظر د/عمر الشيبانى مقدمة فى الفلسفة الإسلامية ص ١١٢ الدار العربية للمكتبات .

مزيد من الشرح والتوضيح والتحديد ، الذى يحدد عمومه ويمنع دخول غير الإنسان فيه .

أما علماء الاجتماع : فقد عرفوا الإنسان بأنه حيوان مدنى بطبعه ، إذ أنه حيوان اجتماعى ، وعلماء الأديان عرفوه بأنه الحيوان المتدين ، وعرفه علماء الأخلاق فقالوا إنه الحيوان المسئول أو الذى يميز بين الخير والشر .

وليس تعريف هؤلاء بأحسن حظاً من تعريف المناطقة كما يتضح ذلك من النظرة الأولى إلى هذه التعاريف .

وهكذا لكل وجهة هو موليها فى تعريف الإنسان .

والملاحظ على هذه التعريفات أن كلا منها ينحو ناحية تخصصه فينظر من زاويتها إلى الإنسان كله ، فهى تعاريف جزئية ، تركز كل منها على ناحية واحدة من نواحى الحقيقة الإنسانية دون بقية النواحى والجوانب متأثراً بنوع الثقافة التى تهمه هو .

وكأن كل من حاول تعريف الإنسان كان يعرف الإنسان من وجهة نظره فكأنما كان يعرف نفسه أكثر مما يعرف الإنسان .

والسبب فى هذا الخطأ هو العدول عن المنهج العلمى الصحيح ، الذى يقتضى أن يرجع فى معرفة حقيقة أى شىء إلى صانع هذا الشىء أو من رأى صانعه ولاحظه وهو يصنعه .

وبإزاء الإنسان كان المنهج العلمى يقتضى أن نرجع فى معرفة الإنسان إلى خالق الإنسان ، إذ أن الصانع أعرف بصنعته من غيره وهو الذى يجب أن يرجع إليه لمعرفة ما صنع .

ولهذا يقول الله تعالى مشيراً إلى هذا المنهج : « ألا يعلم من خلق وهو





اللطيف الخبير [١] » ، ويقول سبحانه : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم [٢] » .

فهذه الآيات تلفت النظر بطريق الاستفهام التقريرى إلى أن الله سبحانه هو الذى يعلم حقيقة الإنسان لأنه الخالق فهو أعلم بمن خلق وهو سبحانه العليم باللطائف الدقيقة المستكنة فى الإنسان وهو سبحانه خبير بها وبكل شىء .

وهذا العلم الإلهى بحقيقة الإنسان ينبغى أن يطلب بكماله من الله وحده لأنه سبحانه ما أشهد أحداً من خلقه عملية خلق السموات والأرض ولا خلق الناس ، ولا خلق من يزعم المعرفة الكاملة بالإنسان نفسه ، إذ كيف يدعيها وهو لم ير نفسه ولا غيره أثناء عملية الخلق .

وإذا كان المنهج الصحيح إنما يطلب عند الله وفى القرآن الكريم فإنه سبحانه أوضح حقيقة الإنسان من أول آية نزلت من الوحى على رسول الله ﷺ وهى تعكس عناية القرآن الكريم ببيان حقيقة الإنسان بوصفها الموضوع الأول للوحى ، إذ قال تعالى فيها : « خلق الإنسان من علق » ، وقال : « علم الإنسان ما لم يعلم [٣] » .

وفى هاتين الآيتين يشير سبحانه إلى : —

١ — المادة التى خلق منها الإنسان .

٢ — خاصية الإنسان التى ميزه عن غيره من الكائنات الأساسية .

---

(١) سورة الملك الآية ١٤ .
(٢) سورة الكهف الآية ٥ .
(٣) سورة القلم آية ٢ ، ٣ .

فالمادة التى خلق منها الإنسان هى العلق والخاصية التى يمتازبها هى للعلم كما أوضح ذلك فى قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها [١] » .

وإذا كانت هذه الآيات قدأعطت ضوءاً للمادة التى خلق منها الإنسان وهى العلق فإن هذه المادة العليا هى تطور لمادة أخرى أوضحتها بمزيد من التفصيل آيات أخرى :

قال تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون [٢] » .

وقال تعالى : « هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون [٣] » .

وقال تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » [٤] .

وقال تعالى : « إنا خلقناهم من طين لازب » [٥] .

وقال تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون [٦] » .

وقال تعالى : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار [٧] » .

وهذه الآيات تبين مراحل خلق الإنسان الأول آدم ولا تناقض بينها ، فكل آية منها تبين حالة من حالات التراب وتغيره من طور إلى طور . فهو يبدأ رقيقاً سلالة تنسل من بين الأصابع ثم يتحول إلى طين لازب متماسك ثم حمإ مسنون ثم صلصال كالفخار حتى إذا سوى نفخ الله فيه من

(١) سورة البقرة الآية ٣١ . (٢) سورة الروم الآية ٢٦ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١ . (٤) سورة المؤمنون ١٢ .
(٥) سورة الصافات ١١ . (٦) سورة الحجر الآية ٢٦ ،
(٧) سورة الرحمن الآية ١٤ ، ١٥ .



روحه ، كما قال تعالى : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » [١] .

أما ذرية آدم من بعده فإن آيات أخرى توضح مراحل الخلق المتطورة عن مادة الطين فى كل مرحلة مثل قوله تعالى : « هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا » [١] .

وقوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين [٢] .

قال الإمام أحمد بن حنبل : « شكوا — أى الزنادقة — وقالوا ينتقض بعضه بعضا » . يعنون القرآن الكريم

نقول : هذا بدء خلق آدم خلقه الله أول بدء من تراب ثم من طينة حمراء وسوداء وبيضاء من طينة طيبة وسبخة .

فكذلك ذريته طيب وخبيث . أسود وأحمر وأبيض ، ثم بل ذلك التراب فصار طينا فذلك قوله « من طين » فلما لصق الطين بعضه ببعض صار طينا لازبا يعنى لاصقا ثم من سلالة من طين يقول مثل الطين إذا عصر انسل من بين الأصابع ، ثم نتن فصار حمأ مسنونا (أسود متغيراً) من الحمإ فلما جف صار صلصالا كالفخار يقول أى صار له صلصلة كالفخار له دوى كدوى الفخار .

فهذا بيان خلق آدم ، وأما قوله : « من سلالة من ماء مهين » فهذا بدء خلق ذريته من سلالة يعنى النطفة إذا انسلت من الرجل فذلك قوله :

(١) سورة غافر الآية ٦٧ . (٢) سورة المؤمنون .

من ماء يعنى النطفة مهين يعنى ضعيف ، فهذا ماشكت فيه الزنادقة[١].

وقد أشار القرآن الكريم باجمال فى آية واحدة إلى المرحلتين معا : خلق آدم ، والنوع الإنسانى من بعده فى قوله تعالى : « الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين .

ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون »[٢] .

وهكذا تتضح المادة والعناصر التى خلق منها الإنسان وهى باجمال.

١ — مادة الطين وتحويلاتها وتصويرها فى أحسن صورة، وماتضمن ذلك من منحها استعدادات متعددة كما قال تعالى : « وصوركم فأحسن صوركم » .

وقوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم» ، وقوله تعالى: « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » .

٢ — نفخة من روح الله أعطت الحياة لهذا التصوير أو التقويم، فجعلته يتحرك ويتغذى وينمو .

٣ — ثم أضيف إلى هذين الشيئين فى خلق الإنسان استعداد خاص للعلم ، به ميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية .

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة .وانظر د/ على سامى النشار . نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ١ ص ٢٨٠ ط ٤ القاهرة ، وأنظر د/ عمر الشيبانى مقدمة فى الفلسفة الاسلامية ٩٩ الدار العربية للكتاب. ليبيا. تونس.

(٢) سورة السجدة الآيات ٧،٨،٩ .





قال تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم » .

وقال تعالى : « الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان » .

وقال سبحانه : « إقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم » .

والعلم المقصود فى القرآن والذى خص به الإنسان لايعنى الإدراك الجزئى أو مايسميه البعض بالإلهام الذى يوجد عند بعض أنواع الحيوان بل ذلك العلم الذى ينتقل به الإنسان من المعارف الجزئية إلى المعارف الكلية ومن المحسوسات إلى المعقولات .

فالإنسان كما يقول الدكتور عمر الشيبانى: هو الحيوان الوحيد القادر على الإدراك أو التفكير المجرد الذى يتعلق بأمور معنوية تجريدية وعلى القياس وعلى الاستدلال والاستنباط واستنتاج النتائج الصائبة من التجارب المتشابهة إلى غير ذلك من العمليات العقلية العليا والنشاط العقلى الذى يرتفع على مستوى الإدراك الحسى البسيط[١] .

وإلى هنا نلاحظ أن القرآن الكريم أفاض فى بيان المادة الأولى التى خلق منها الإنسان وأوصافها خلال أطوارها المتعاقبة، وبيان الصورة التى ركب عليها الإنسان واستعداداته من السمع والبصر والفؤاد والعلم ولم يبين حقيقة الروح التى نفخت فى المادة والصورة فوهبت الحياة لهذا الكائن

---

(١) مقدمة الفلسفة الإسلامية ١١١ ط الدار العربية للكتاب ليبيا . تونس .

المادي ونقلته من مرحلة الجمود والموت إلى الحياة والحركة «كنتم أمواتا فأحياكم»[1].

قال تعالى: «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»[2].

كل ما ورد في القرآن في هذا الصدد آيات تتحدث عن النفس وأنواعها ووظائفها.

لكن ما علاقة النفس بالروح؟.

لم تحدد الآيات ذلك، كل ما ذكرته أن النفس يراد بها أحيانا مجموع البدن والروح باعتبار أنها موقع الموت أو الحياة مثل قوله تعالى: «من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا»[3] وقوله تعالى: «ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما»[4].

وقوله سبحانه: «ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من دياركم»[5].

ولأن الروح هي سبب الحياة ومظهرها فإنه يمكن اعتبار النفس في هذه الآيات مرادفة للروح.

وقد حاول كثير من الأئمة والمفكرين أن يفسروا معنى الروح والنفس والعقل لكن محاولاتهم لم تؤد إلى كشف الحقائق بقدر ما أسهمت

(١) سورة البقرة الآية ٣٠
(٢) سورة الاسراء الآية ٨٥
(٣) سورة المائدة الآية ٣٢
(٤) سورة النساء الآية ٢٩
(٥) سورة البقرة الآية ٨٥





في تراكم المعاني فوق الألفاظ وزيادة الغموض، ونأخذ نموذجا لذلك من:

ـ الامام أبي حامد الغزالي:
ـ والأستاذ عباس محمود العقاد.

فقد عنى الإمام الغزالي (وهو الذي رفض تفسيرات الفلاسفة) لهذه الأمور بالكشف عنها في كتابه: «إحياء علوم الدين».

فقال: إن الروح يطلق على معنيين،

«أحدهما» جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن وجريانه في البدن وفيضانه بأنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم فيها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج.

والمعنى الثاني: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، وتحقيق هذا المعنى يستدعي عند الغزالي إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله ﷺ فليس لغيره أن يتكلم فيه، وهو الذي أراده الله بقوله: «قل الروح من أمر ربي».

ونلاحظ أن الإمام الغزالي عرف الروح بأنها اللطيفة العالمة المدركة كأنه جعل للإنسان روحا تختلف عن روح الحيوان بأنها العالمة المدركة لأن الحيوان لا يعلم ولا يدرك كالإنسان فماذا تكون روحه إذن إذا لم تكن الروح هي قوام الحياة في جنس الحيوان كله، ومنه الإنسان؟

ثم إن الإمام الغزالي يطلق أيضا على النفس معنيين:

المعنى الأول: يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان

والمعنى الثانى : يراد به تلك اللطيفة العالمة المدركة ، وهى كما يقول : الإنسان بالحقيقة وهى نفس الإنسان وذاته ولكنها توصف بأوصاف مختلفة فإذا سكنت وزايلها الاضطراب سميت « النفس المطمئنة » وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة النفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت « النفس اللوامة » .

وهكذا يستمر الإمام الغزالى فى إطلاق معنى اللطيفة العالمة المدركة على كل من : الروح والنفس ، والقلب، والعقل ، تختص بها الروح وحدها وتشترك معها النفس والعقل والقلب وإن كان لكل منها معنى خاص. فهى تجتمع كلها فى معنى السر الإلهى أو اللطيفة العالمة المدركة .

وعلى ذلك يطلق على القلب أنه «الجسم الصنوبرى المعروف»، وعلى الروح أنه « الجسم اللطيف الذى منبعه تجويف» وعلى النفس أنها « المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة » وعلى العقل أنه « القلب » أو أنه « العلم بحقائق الأمور » .

يقول : « فإذن قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة فى القلب الجسمانى والروح الجسمانى والنفس الشهوانية والعلوم، فهذه أربعة معانى تطلق عليها الألفاظ الأربعة . ومعنى خامس وهى اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان والألفاظ الأربعة يحملها تتوارد عليها فالمعانى خمسه والألفاظ أربعة وكل لفظ منها أطلق لمعنيين»[1] .

ورغم أن الإمام الغزالى يظن أنه كشف حقيقة هذه المسميات بما قدم من تعريفاتها إذ يقول: «وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ

---

(١) احياء علوم الدين جـ ٣ صـ ٤٢٣ طبعة دار المعرفة ببيروت .





وتواردها فتراهم يتكلمون فى الخواطر ويقولون هذا خاطر العقل . وهذا خاطر الروح ، وهذا خاطر القلب ، وهذا خاطر النفس . وليس يدرى الناظر اختلاف معانى هذه الأسماء ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسامى » .

إلا أننا فى الحقيقة نراه فى النهاية لم يفعل رضى الله عنه شيئا غير أنه أشرك المسميات الأربعة القلب ، والروح ، والنفس ، والعقل فى معنى أساسى واحد هو : أن كلا منها يعنى اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان وتحقيق هذا المعنى كما يقول هو بالنص ، إن تحقيقه يستدعى إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله ﷺ فليس لغيره أن يتكلم فيه[1] .

وهكذا لا يقدم فى النهاية تعريفا لحقيقة الروح ، أو النفس ،أو العقل ويرى أنه ليس له ولا لغيره أن يتكلم فيه كما قال :

أما الأستاذ « عباس العقاد » فإنه يرى جملة القوى من النفس والعقل والروح تكون الذات الإنسانية وأن كل قوة منها تدل على الذات الإنسانية فى حالة من حالاتها .

ويقول : إنه من المقابلة بين هذه القوى كما ذكرت فى الكتاب المبين قد تبين أن الروح هو أقربها إلى الحياة الباقية وأخفاها عن المدارك الحسية وأنه الجانب الذى استأثر الله بعلمه واحتجب عن أنبيائه، أما العقل والنفس فى بيان القرآن الكريم فالراجح أن النفس أقربها إلى الطبع أو القوة الحيوية التى تشمل الإرادة كما تشمل الغريزة وهى القوة التى تحس النعمة والعذاب وتلهم الفجور والتقوى وتحاسب على ما تعمل من حسنة

---

(١) نفس المصدر ونفس الصفحة .

أو سيئة فهى القوة التى تعمل مهتدية بهدى العقل »[1] .

فالعقل عند العقاد أرقى من النفس وأقل من الروح ، ويستدل العقاد على فكرته تلك بأن الإنسان أعم من النفس لأنه مسئول أن ينهاها قال تعالى « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى »[2] .

ويرى الأستاذ العقاد : أن الروح من أمر الله وأنها سر منه وأن التكليف واقع على النفس وهى التى يقع عليها الحساب أو هى التى تثاب أو تعاقب .

يقول : « وفى كل موضع من هذه المواضع تذكر النفس الإنسانية بعامة هذه القوى فتجمعها خاصة واحدة هى خاصة الإنسان فى القرآن وهى كما تقدم خاصة الكائن المكلف المسئول » .

« كل نفس بما كسبت رهينة »[3] ،

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً »[4] ،

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً »[5] ،

ولعلنا نلاحظ أن أدلة الأستاذ العقاد ليست قاطعة ، لأن ألفاظ القرآن الكريم تحتمل أن يكون المراد من النفس مجموع الذات كقوله تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما »[6] ،

---

(١) الإنسان فى القرآن ص ٣٧ ط دار الكتاب العربى بيروت .
(٢) سورة النازعات الآية ٤٠ ، ٤١
(٣) سورة المدثر الآية ٣٨ (٤) سورة الأنبياء الآية ٤٧
(٥) سورة آل عمران الآية ٣٠ (٦) سورة النساء الآية ٢٩ .





واستعمالات لفظة النفس فى اللغة العربية تؤكد هذا المعنى ، إذ تستعمل النفس توكيداً للذات بمجموعها لا تعبيراً عن جزء منها فيقال : جاء محمد نفسه ، ويراد أن مجموع ذات محمد قد جاءت ولا يراد بأن جزءاً من محمد هو الذى جاء .

أما ما يقوله الأستاذ العقاد فى تفسير قوله تعالى : « ونهى النفس عن الهوى » من أن الإنسان أعم من النفس وأنها جزء من الإنسان إذ يقع عليها النهى منه حين ينهاها فقد يكون المراد أن الإنسان بمجموع قواه قد نهى هذه القوى .

وكذلك ما يقوله من أن النفس هى محل التكليف فإنه يمكن الرد عليه بأن العقل هو مناط التكليف لأنه المختار ولأنه الذى يوجه النفس وجميع القوى بدليل أن للصبى والمجنون نفسا لكنهما ليسا محلا للتكليف ولا للثواب أو العقاب يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « رفع القلم عن ثلاث ، عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبى حتى يبلغ وعن المجنون حتى يفيق » ، فلو كانت النفس هى محل التكليف لما سقط عن هؤلاء .

فالنفس إذن مرادفة للروح وهى معبرة عن الذات الإنسانية وقال تعالى : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » بمجموعها وسائر قواها .

وقال تعالى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها »[2] وما تعدد النفس فى القرآن الكريم إلى نفس لوامة ، ونفس راضية ، ومطمئنة

---

(١) سورة النساء الآية ٢٩ .
(٢) سورة الجاثية ١٥

إلا إشارة إلى وظائف النفس واستعداداتها فهى تارة أمارة بالسوء ، كما قال تعالى : وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء »[1] .

وهى تارة أخرى نفس لوامة أى تلوم صاحبها على فعل المعصية يقول تعالى : « ولا أقسم بالنفس اللوامة »[2] .

وهى تارة ثالثة نفس مطمئنة كما قال تعالى : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى »[3] .

ومهما يكن من أمر، فإن ألفاظ القرآن الكريم تحتمل كثيراً من الوجوه فى معنى النفس والروح والعقل ولذلك تعددت الاجتهادات فى ظلال الآيات المعجزة التى تعطى غاية التسامح للاجتهادات والخيارات .

ويبقى كل اجتهاد فى حقيقة النفس والروح محتملا للصواب والخطأ ؛ لأن الله أعلم بالمراد منهما ، وما استأثر الله بعلم حقيقتها إلا لأن العقل الإنسانى عاجز عن أن يصل إلى إدراك الحقيقة الكاملة للروح لأنها من أمر الله عز وجل الله عن أن تحيط به المدارك أو تصل إلى كنهه العقول، « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »[4] .

وذلك فى الحقيقة توفير للطاقة الإنسانيـــة عن أن تشغل ببحث ما لا تستطيع إدراكه مما ينفعها وتوجيه لها إلى الخير من كل عمل يزكى النفس ويطهرها ويهديها . . نستطيع إذن فى ختام هذا الفصل أن نقرر أن الإنسان فى القرآن الكريم هو ذلك الكائن الحى المخلوق من الطين ومن روح الله القادر على العلم وما يقتضيه العلم من التفكير والتعبير .

* * *

(١) سورة يوسف الآية ٣ (٢) سورة القيامة الآية ٢
(٢) سورة الفجر الآيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠
(٤) سورة الأنعام الآية ١٠٣





## ٢ — المقارنة بين الإنسان فى القرآن والإنسان فى المذاهب المادية والروحية

قلنا فى البداية إن حقيقة الإنسان تنعكس آثارها على :

١ — معرفة الإنسان لذاته وما توجبه هذه المعرفة من عقائد وأفكار تؤثر على إدراكه لنفسه وعلاقته بالكون والحياة .

٢ — كما أن هذه المعرفة تحدد المنهج الذى ينظم الحياة على أساس ملائم للإنسان .

ولذلك فإن تقدير الإنسان فى القرآن يختلف عن تقدير غيره من المدارس المادية والروحية فى التأثير على مشاعر الإنسان ذاته ومدى الشعور بكرامته وفى التأثير على نوع المناهج والعلاقات التى يختارها فى ضوء هذا الشعور .

فالمذاهب المادية التى ترى أن الإنسان مجرد مادة فقط وأن الحياة المادية هى الأساس فى الوجود تسببت فى :

١ — شعور الإنسان بالهبوط والاحتقار لذاته لأنه مجرد حيوان مادى يعيش فترة ثم ينتهى ولا تقوم له قائمة بل ذهب الماديون إلى أن الإنسان مجرد سلعة يمكن أن تنتج أى سلعة .

وقد نقل الدكتور توفيق الطويل[1] من كتاب « هوارد » « الدراسة

(١) فى كتابه أسس الفلسفة صـ ٢٤٣ ط ٦ دار النهضة العربية القاهرة

الصحيحة للجنس البشرى تحليل للإنسان وذكر أنه : مؤلف من المواد التالية بنسب معينة .

ماء يكفى لملء برميل يسع عشرة جالونات .

دهن يكفى لصنع سبع سبائك من الصابون .

وكربون يكفى لصنع ٩٠٠٠ قلم من الرصاص .

وفسفور يكفى لصنع ٢٢٠٠ رأس من رؤس عيدان الكبريت .

وحديد يكفى لصنع مسمار متوسط الحجم .

وكلس ( جير ) يكفى لبياض تفقيصة فراخ .

وكميات ضئيلة من المغنيسيوم والكبريت .

فإذا جمعت هذه المواد وخلط بعضها بالبعض الآخر بنسب صحيحة وطريقة دقيقة كان ناتج هذا الخليط إنسانا لا محالة ، أى أن هناك قاعدة لإنتاج الإنسان كما توجد قاعدة لإنتاج أى شىء مادى آخر .

وقد أسهمت الداروينية فى الشعور بزيادة الاحتقار للإنسان حيث جعل داروين الإنسان مجرد حالة متطورة لحيوانات سابقة .

كل ذلك يجعل الإنسان كما يقـــول الدكتور يوسف القرضاوى « لايستغرب من نفسه الانحدار والتلوث والإسفاف ولا يستنكف من القذارة والأوحال أن يتمرغ فيها ويتلطخ بها بل المستغرب منه أن يتعفف ويتطهر وأن يحيا نظيفا مستعليا على الشهوات والمطامع المادية » .

٢ ــ كما أن المذاهب المادية من شأنها أن تدفع الإنسان إلى ظلم أخيه الإنسان ودون خوف من حساب لأنه إذا لم تكن هناك حياة أخرى يبعث فيها الناس ليحاسب كل منهم على مافعل وأن لاشىء غير هذه الدنيا فقط فليصنع كل إنسان ما يحلو له فى هذه الحياة دون نظر إلى اعتبار آخر .





وقد عملت هـذه النظرة على رواج مذاهب المنفعة وساعدت على انتشار الأنانية والتنازع بين البشر وذلك يعسر الوضع العالمى المضطرب الآن ، لأنه كلما انتشرت المادية انتشرت معها الأنانية وحب الذات والعمل لها دون حساب للآخرين ولذلك تنتشر المنازعات والحروب وعالمنا المعاصر .

٣ ــ أن هذه النظرة المادية وجهت العلم وجهة شريرة فبدلا من أن يتجه العلم إلى تشجير الكون لخدمة الإنسان واحلال السلام على الأرض فقد اتجه العلم وجهة مادية هدفها تأكيد السيطرة وتوسيع مناطق النفوذ على حساب الضعفاء عن طريق توجيه طاقات العلماء وإمكانيات الدول لانتاج الأسلحة المدمرة والقنابل والصواريخ الفتاكة .

كل ذلك لأن المذاهب المادية توهن إيمان الإنسان بالقيم والمثل العليا وتربط حياته هو بفترة وجوده فى هذه الأرض دون حياة أخرى يلقى فيها كل إنسان حسابه .

وقد أدى التقـدم العلمى وانتشار المخترعات مع انتشار المذاهب المادية إلى تنمية شعور الغرور والاستكبار فى الأرض التى ظن أهلها فى بعض الدول الصناعية « أنهم قادرون عليها » .

يقول « جوليان هكسلى »[1] .

« إن الإنسان فى العالم الحديث أصبح هو الله المنشىء المريد » .

وهذا الاتجاه المادى الذى قاد الحضارة الغربية إلى مشارف الانهيار

---

(١) فى كتابه الإنسان فى العالم الحديث ترجمة حسن خطاب ص٢٢٤ نقلا عن د . يوسف القرضاوى الإيمان والحياة ص ٦٣ مكتبة وهبه ، القاهرة .

منذ أوائل هذا القرن لأن الأفكار المادية إذا طغت على الوجود الإنسانى تضاءلت سيادة العامل الأخلاقى الذى هو الضمان لبقاء العدل الطبيعى والعدل القانونى واستمرار الحضارة .

يقول برتراندراسل « انتهت حضارة الرجل الأبيض[1] » ذلك لأن أى حضارة تستبعد العامل الأخلاقى وتعطى همها كله للجانب المادى إنما تتجه إلى الترف واستحداث ألوان المتع التى تخرب كيان الإنسان العقلى والروحى وتنخر وجوده كما قال تعالى « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »[2]

أما المذاهب الروحية فعلى العكس من ذلك كله إذ أسرفت فى الاتجاه المضاد فأعلت شأن الروح واحتقرت رغبات الجسد ونوازع الفطرة وحاربت فى الإنسان كثيرا من دوافعه المهمة للحياة وبذلك أوقعت الإنسان فى حلبة من الصراع بين ما يعتقده وما يحتاج إليه فهو بين أمرين

— إما أن يلتزم المذهب الروحى ويكبت دوافع المادة فيه ويتحمل عناء المواجهة مع نفسه وما يجره ذلك عليه من كبت وحرمان وإذلال وتعذيب للطبيعة البشرية فيه .

ولأن المذاهب الروحية ترى فى متع الحياة رجسا فان حصادها النهائى هو الرهبنة والفقر .

ولذلك نرى بعض المجتمعات الهندية التى تسود فيها المذاهب الروحية

---

(١) انظر فى هذا كتاب فلسفة الحضارة لألبرت شفيتسر وكتاب الرد على الدهر بين للإمام جمال الدين الأفغانى .

(٢) سورة الإسراء الآية ١٦





كاليوجا مثلا تعانى من وطأة الفقر بعد أن صورت هذه المذاهب الحياة للناس على أنها أمر تافه يجب الترفع عن تحصيله .

أما الدول الأوربية التى تعتنق المسيحية وهى ديانة روحية فقد ثار الناس ضد سيطرتها على الحياة الدنيوية وأقبلوا على رغم منها يفعلون ما يشاءون .

لكنهم فى حقيقة الأمر يعانون أزمة روحية لأنهم بعد أن تمردوا على سلطان الكنيسة وتزمتها ضد مطالب الجسد وحاجات الحياة ظلوا على غير هدى فى أمر العقيدة التى تسكن إليها النفس ويستقر لها الوجدان ،

ومن هنا نفسر انتشار المذاهب الرافضة فى الغرب كما نفسر حوادث الانتحار والضياع النفسى الذى يعانيه الكثيرون هناك .

أما الإنسان فى القرآن فهو بمنجاة من كل هذه المحاذير لأن القرآن الكريم يقرر ثنائية الإنسان من مادة وروح ويقرر حظوظ المادة وحظوظ الروح بما لا تطغى إحداهما على الأخرى وبما يجعل الطبيعة البشرية على سواء من الاتزان والاستقرار .

ويمكن أن نستخلص النتائج والآثار المترتبة على تقرير القرآن للانسان بما يلى :

١ — شعور الإنسان بالشبع والارتواء وما يصاحب ذلك من راحة للبدن وانفس على السواء ،

فالقرآن الكريم عنى بالجانب الروحى فى الإنسان بما فرض من عبادات كالصيام والصلاة والحج والزكاة وغيرها من أنواع الصدقات والكفارات .

فمن شأن الصلاة أن تطهر النفس وتربط الإنسان بالوجود الأعلى الذى يداوم اللقاء خمس مرات كل يوم ولذلك يقول الله « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم »[١] ويقول الرسول ﷺ « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه خمس مرات كل يوم أفيبقى على بدنه شىء؟ »والصيام يطهر البدن ويعلى الغرائز ويحى المراقبة الدائمة لله فى السر والعلن مما يجعل الإنسان حارساً على نفسه موجهاً لدوافعه قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »[٢] .

والزكاة تطهر المال وتنقى النفس من شوائب الشح والتكالب على الحياة وتبعث شعور الأخوة والعطف على الفقراء والمحتاجين قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »[٣] .

بل جعل القرآن الكريم الغاية من وجود الإنسان عبادة الله فما جئنا إلى هذه الحياة إلا لعبادته قال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »[٤] .

لكن عبادة الله وتزكية الجانب الروحى فى الإنسان ولا تصرفه عن أداء مطالب البدن بل أداء مطالب البدن ذاتها عبادة لأنه الوسيلة والآلة التى بها يؤدى الإنسان عبادة الله .

ولذلك نرى القرآن يرضى مطالب البدن جميعاً نأمر بالأكل من الطيبات .

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٣ (٢) سورة البقرة الآية ١٨٢
(٣) سورة البقرة الآية ١٠٢ (٤) سورة الذاريات ٥٦، ٥٧، ٥٨





يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون »[١] .

ويأمر بالإنفاق بلا تقتير وإسراف يقول تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً »[٢] ، كما قال تعالى : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »[٣] .

كذلك يأمر القرآن باتخاذ الزينة عند المساجد حيث يلتقى المؤمنون ويقاس عليها كل ملتقى طيب ، إذ يقول تعالى : « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »[٤] .

كما جعل القرآن الزواج شعيرة من شعائر الدين قد يصل حكمها إلى الوجوب عندما يكون المرء قادراً على الإنفاق غير قادر على الإحصان .

قال تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة »[٥] .

ولما عزم بعض أصحاب رسول الله ﷺ أن يصوم أحدهم الدهر ولا يفطر ويمتنع أحدهم عن اللحم والآخر عن الزواج قال عليه الصلاة والسلام « إننى امرؤ أصوم وأفطر وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى ... ذلك أن القرآن قد نهى عن تحريم الطيبات

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٢ (٢) سورة الإسراء الآية ٢٩
(٣) سورة الحشر الآية ٩ (٤) سورة الأعراف الآية ٣١
(٥) سورة النساء الآية ٣

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون »[1] .

وقال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »[2] ،

وعلى سبيل الإجمال نقول إن القاعدة العامة التى تدور عليها أحكام التحليل والتحريم أنه ليس هناك شىء طيب فى هذه الحياة غير ضار بالنفس أو البدن إلا أحله الله للمؤمن بلا عدوان ولا إسراف فالتحريم ليس واقعاً إلا على الخبائث التى لاتحقق للإنسان من المتاع بقدر ماتحقق من الضرر يقول تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم »[3] .

كما يقول تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أولحم خنزير فإنه رجس أوفسقاً أهل لغير الله به »[4] .

وعند حالة الضرورة التى قد تنزل بالإنسان ويتعرض فيها لخطر الهلاك فإن أحكام التحليل والتحريم للمطعومات والمشروبات تتأخر فوراً لتحل محلها الإباحة لكل مامن شأنه أن يحفظ البدن .

(١) سورة المائدة الآية ٨٧ ، ٧٨ (٢) سورة الأعراف الآية ٣٢
(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٧ (٤) سورة الأنعام الآية ١٤٥





قال تعالى : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم »[1].

كما قال تعالى : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم »[2] :

٢ — أن التوازن بين المادة والروح وأشباع رغباتها جعل الإنسان فى القرآن متعادلا داخل ذاته إذا شدته مادة الطين التى خلق منها إلى الشهوات والرغبات الدنيوية سمت به روح الله التى نفخ بها فيه وصعدت به إلى آفاق المثل العليا .

ويبدو هذا التعادل واضحاً فى آيات كثيرة من القرآن الكريم بين الله فيها أن الدنيا وحدها دون ابتغاء رضوان الله لا تساوى شيئاً وماهى إلا متاع قليل .

قال تعالى: « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »[3] .

وليس المقصود من هذه الآية وأمثالها فى القرآن الكريم التحقير من شأن الحياة الدنيا ليتجنبها المسلم بل المقصود أن لا تملك الدنيا عليه قلبه أو لاتستأثر بحبه حتى يفضلها على الآخرة لأن الدار الآخرة هى الحياة الحقيقية التى يجب أن تستأثر بحب الإنسان وتملك عليه قلبه قال تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون »[4] ،

(١) سورة البقرة الآية ١٧٢ (٢) سورة الأنعام الآية ١٤٥
(٣) سورة الحديد الآية ٢٠ (٤) سورة العنكبوت الآية ٦٤

ولذلك كان الرسول ﷺ كثيرا مايدعو ربه « اللهم لاتجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا » .

وهذا ماعناه القرآن بقوله تعالى «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين »[1] .

وبقوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخره إلا قليل »[2] .

فإذا وضع الإنسان الآخرة أمام عينيه وجعلها غايته وطلب الحياة الدنيا ليتقوى بها على طاعة الله وليحقق خلافة الله فى تعميرها وتسخيرها وليغنى نفسه ومن يرعى من زوج وولد وليرتفع عن ذل السؤال كان الله كفيلا أن يحقق مايبتغيه ويجمع له حظ الدنيا والآخرة معاً .

قال تعالى « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب »[3] .

والخطة التى تجعل الإنسان متعادلا فى القرآن الكريم أن يجد الإنسان فى تحصيله للرزق بطرقه المشروعة التى حددها الله مبتغيا العفاف والغنى من فضل الله فإذا أوتى مايريد شكر الله حتى يكون طلب الدنيا والسعى إليها متوسطا بين طلبه للآخرة والاحسان فى الدنيا :

(١) سورة التوبة الآية رقم ٥٤
(٢) سورة التوبة الآية رقم ٣٨
(٣) سورة الشورى الآية رقم ٢٠





قال تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »[1]

وقال سبحانه : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين »[2]

وإذا كان هذا كله من شأنه أن يكبح جماح بعض النفوس التى تميل إلى المادة وطلب الحياة الدنيا فإن النظرة القرآنية تكبح جماح تلك النفوس التى تبلغ بها التقوى والورع حداً قد يبعدها عن الانغماس فى الحياة فتنعزل عن طلب الرزق وتنحنث مترفعة عن المادة .

ويقرر القرآن أن الرهبانية ، والانعزال عن الحياة يجافى العدل الذى به تقوم حياة الإنسان وتستوى عليه فطرته وما كلف الله الإنسان بشىء يناقض هذه الفطرة ولذلك يقول الله سبحانه « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم »[3] .

وهكذا تؤدى النظرة القرآنية إلى الإنسان إلى التعادل الكامل داخل النفس فلا يطغيه الإسراف المادى ولا يعصف به جفاف الروح .

٣ — أن خلق الإنسان من المادة والروح يشعر الإنسان بمزيج من الشعور بالتواضع والاعتزاز بالذات فى نفس الوقت .

فهو يشعر بالتواضع بحكم كونه من تراب أو من ماء مهين ، ومعروف شأن هذا وذاك .

(١) الحديد ٢٧
(٢) القصص ٧٦
(٣) غافر ٥٧

وفى مواضع استكبار بعض الناس وغرورهم بقدرتهم وغفلتهم عن قدرة الله يؤكد الله سبحانه أن خلق الإنسان شىء هين بالنسبة له سبحانه وبالنسبة لما خلق .

يقول الله عز وجل : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس »[1]

ويقول سبحانه : « فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب »[2] ويقول تعالى : « قتل الإنسان ما أكفره . من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدره »[3] .

كما قال سبحانه : « فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر »[4]

ولا يستمر تذكير القرآن للإنسان بأصله وبشأن المادة التى خلق منها ترابا أو ماء مهينا إلا بمقدار ما يكفكف غرور النفس ويلزمها التواضع .

ولكى يثبت الإنسان عند مقام التواضع ولا ينحرف إلى طور الذلة والمهانة ، التى قد يستصحبها الشعور بمهانة التراب أو الماء الدافق فإن القرآن يحجز الإنسان عن هذا الشعور بأنه مخلوق فى أحسن تقويم

قال تعالى « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين »[5]

---

(١) غافر ٥٧ (٢) الصافات ١١
(٣) سورة عبس ١٧ ، ١٨
(٤) سورة الطارق ٥ ، ٦
(٥) سورة التين : ٤ ، ٥





وبأنه أكرم مخلوق قال تعالى « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[1]

ولقد أشار الرسول ﷺ أكثر من مرة إلى أن الله سبحانه خلق آدم على صورته وقد قال تعالى « وصوركم فأحسن صوركم »[2]

ويمنع الإنسان من شعور المذلة والهوان ويملؤه بشعور الاعتداد بالذات حين يثبت أن من أجل الإنسان أمر الله الملائكة وهم خلقه المقربون أن يسجدوا لآدم مباشرة بعد نفخ الروح الإلهى وقيامه بشرا سويا قال تعالى « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »[3] وطرده سبحانه وتعالى لإبليس الذى رفض هذا السجود كما هو مشهور معلوم .

ذلك لأن إبليس نظر إلى الإنسان باعتبار مادته الطينية فاستهان بها وغفل عن مافى الإنسان من روح الله الذى جعله أكرم المخلوقات.

٤ — أن إشعار الإنسان بأنه مخلوق من الأرض يجعله مرتبطا ببيئته الأرضية ينميها ويعمرها ويكدح فيها لأنها منبته ومعاده قال تعالى « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى »[1] .

ومن أوضح العقائد وأشهرها فى القرآن الكريم أن الإنسان خليفة الله فى الأرض فهو مسئول عن إعمارها باسم الله وخلافة له قال تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »[2] كما قال تعالى

---

(١) الإسراء ٧٠ (٢) التين ٤ ، ٥
(٣) سورة الحجر ٢٠
(١) سورة طه الآية ٥٥ (٢) سورة البقرة الآية ٣٠

« وهو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »[٣] .

وتعمير الأرض يقتضى أن يسخرها ويضرب فى مناكبها ويستخرج معايشه وقد أعان الله الإنسان على هذا التسخير فبسط الأرض وذللها للانسان وخلق له كل ما فيها وأودعها كثيراً من الرزق قال تعالى « وهو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً »[٤] كما قال تعالى « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون »[٥] وقال سبحانه « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين »[٦] وقال سبحانه « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور »[٧] .

فالآيات الكريمة التى جاءت تشرح لنا خلق الإنسان الأول توجهنا إلى أن الإنسان جزء لا يتجزأ من الكون المحيط به عليه أن يتفاعل معه بجسمه وعقله وروحه فيؤثر فيه ويتأثر به وينتفع بما أودعه الله فى الكون من منافع ويكتشف أسراره وقوانينه أو السنن الإلهيه التى يسير بمقتضاها، ويحافظ على ثروته وموارده ويعمل على تنميتها وتطويرها وتحسينها على أساس من الحقائق والقوانين العلمية التى اكتشفها لأن الإنسان انعكاس للوسط المادى والمعنوى الذى يعيش فيه وأى ارتقاء بهذا الوسط من شأنه أن يساعد على الارتقاء بالإنسان وأى ارتقاء بالإنسان من شأنه أن يساعد على ارتقاء الوسط الذى يعيش به »[٦] .

(١) سورة هود الآية ٦١ (٢) سورة البقرة الآية ٢٩
(٣) سورة الأعراف الآية ١٠ (٤) سورة الحجر الآية ١٩ ، ٢٠
(٥) سورة الملك الآية ١٥
(٦) مقدمة فى الفلسفة الإسلامية ق ٦٠٢ ط الدار العربية للكتاب ليبيا تونس





والآيات القرآنية التى تشير إلى كثير من السنن الكونية ، لتسخير الطبيعة كثيرة ومبثوثة فى القرآن كلـــه توحى للإنسان باكتشافها واستخدامها ولا يلزمه لاكتشاف القانون الكونى الذى يخضع له الأرض يسير من التأمل والتفكير بعد إشارة القرآن ومن هذه الآيات ما يشير إلى قانون الخرق والالتئام مثل قوله تعالى « ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكن إلا الله أن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون »[١] .

ومنها ما يشير إلى قانون المطر الطمو ومصادر الطاقة مثل قوله تعالى « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليـــل والنهار »[٢] .

قال تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »[٣] .

كما قال تعالى « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة »[٤] .

وقال سبحانه « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[٥] :

• — يضاف إلى ما تقدم شىء أساسى يترتب على خلق الإنسان من

(١) سورة النحل الآية ٧٩ (٢) سورة إبراهيم الآية ٣٢ ، ٣٣
(٣) سورة فصلت الآية ٢ (٤) سورة لقمان الآية ٢٠
(٥) سورة الجاثية ١٢ ، ١٣

مادة وروح ذلك هو استعداد الإنسان للخير والشر أو بعبارة أخرى قابليته للتكليف ،

فالإنسان هو الكائن الوحيد الذى أودعه الله استعداداً متساوياً للهبوط إلى أسفل سافلين أو الصعود إلى أعلى عليين فهو مستعد للخير بمقدار ما فيه من روح الله ومستعد للشر بمقدار ما فيه من طين .

قال تعالى « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً »(١) .

وقال سبحانه « ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفتين وهديناه النجدين »(٢) .

وقال تعالى تعالى « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها »(٣) .

وقال سبحانه « إن سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى »(٤) .

ولكن ليس معنى ذلك أن الإنسان يولد صفحة بيضاء كما ذهبت بعض المدارس الأخلاقية وعلى رأسها جان جاك روسو إذ ذهبت إلى

---

(١) سورة الإنسان الآية ٢

(٢) سورة البلد الآية ٨ ، ٩ ، ١٠

(٣) سورة الشمس الآية ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠

(٤) سورة الليل ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠





إلى أن الإنسان يولد خلوا من أى عقيدة والمؤثرات البيئية المتعددة هى التى توجهه نحو الخير أو الشر .

قال تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم »(١) .

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية ... « فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره .

أخرج البخارى عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال « مامن مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء .

ثم يقول « فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » .

كما روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع قال : « أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه فأصبت ظفر . ففاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول الله ﷺ .

فقال ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟

فقال رجل : يا رسول الله أما هم أبناء المشركين ؟

فقال : لا إنما خياركم أبناء المشركين :

ثم قال : لا تقتلوا ذرية ، لا تقتلوا ذرية .

وقال : كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها(٢) .

---

(١) سورة الروم ٣٠

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده والنسائى فى كتاب السير

وعن جابر بن بران قال : قال رسول الله ﷺ كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فاذا عبر عنه لسانه إما شاكرا وإما كفورا.

على أن أبا حنيفة رضى الله عنه رأى أن الفطرة هى الصفاء أو مجرد الاستعداد وأن الطفل يولد صفحة بيضاء خلوا من أى عقيدة ثم هو يختار أفعاله بقراره ومحض إرادته .

يقول : «وخلق الله الخلق خلوا من شائبة الكفر والإيمان ثم أتى الخطاب — الأمر والنهى — فآمن من آمن و كفر من كفر فعل الأول — الإيمان — بفعله أى قراره وتصديقه بتوفيق الله تعالى إياه ونصرته، وفعل الثانى الكفر بفعله وانكاره وجحوده الحق بخذلان الله تعالى إياه».

ويقول : «ولم يجبر أحداً من خلقه على الإيمان على الكفر ولا على الإيمان ولا خلقه مؤمنا ولا كافراً» .

ولعل أبا حنيفة أراد أن يؤكد حرية الإنسان وكسبه لأفعاله بتوفيق الله تعالى فان النصوص الكثيرة التى أوردها ابن كثير وغيرها تؤيد مذهب الجمهور فى أن الفطرة التى خلق الله الناس عليها هى الدين القيم ذاته ، فالانسان يولد مؤمنا على الحنيفية السمحة ولكنه يختار بعد ذلك بإرادته . استمرار الإيمان أو النكوص عنه إلى الكفر .

أخرج مسلم فى صحيحه ، وأحمد فى مسنده عن عياض بن حماد عن النبى

---

(١) أخرجه الامام أحمد عن جابر بن عبد الله مرفوعا .

(٢) عن د. على سامى النشار نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام حـ ١ ص ٢٦٧





ﷺ . يقول الله عز وجل خلقت عبادى حنفاء ، وفى رواية « مسلمين فاجتالتهم الشياطين »(٢).

وقد تحدث ابن رجب ( ٧٣٦ — ٧٩٥ هـ ) حديثا جيدا حاول أن يوفق بين الأحاديث الواردة فى ذلك مثل قوله ﷺ « كلكم ضال إلا من هدى وهذا الحديث ( خلقت عبادى حنفاء ) .

وبهذه المحاولة يتم التوفيق بين مايقوله الجمهور من أن الفطرة هى الدين القيم ومايقوله أبو حنيفة أنها الخلو من شائبة الإيمان والكفر .

قال ابن رجب :

فإن الله خلق بنى آدم وفطرهم على قبول الإسلام، والسبيل إليه دون غيره ، والتهيؤ لذلك ، والاستعداد له بالقوة ، لكن لابد للعبد من تعليم الإسلام بالفعل فانه قبل التعليم جاهل لايعلم شيئا. كما قال عز وجل «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا »(٣) وقال لنبيه « ووجدك ضالا فهدى»(٤).

والمراد : وجدك غير عالم بما علمك من الكتاب والحكمة كما قال

---

(١) فى كتاب جامع العلوم والحكم . تحقيق د. محمد الاحمدى أبو النور جـ ٣ ص ٦٨ ، ٦٩ ط الحلبى — القاهرة .

(٢) صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها . باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٤/٢١٩٧ — ٢١٩٨ ، ومسند أحمد ٤/١٦٢ طبعة الحلبى عن المصدر السابق .

(٣) سورة النحل الآية ٧٨

(٤) سورة الضحى الآية ٧

تعالى « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا »(١).

وينتهى ابن رجب إلى القول :

« فالإنسان يولد مفطورا على قبول الحق ، فإن هداه الله تعالى سبب له من يعلمه الهدى ، فصار مهتديا بالفعل بعد أن كان مهتديا بالقوة وإن خذله الله قيض له من يعلمه مايغير فطرته كما قال ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » . أخرجه البخارى .

فالفطرة إذن هى قبول الحق والتهيؤ له والاستعداد للتلقين أكثر من غيره وبهذا يتم التوفيق بين من يقول إن الفطرة صفحة بيضاء نقية وبين من يقول إنها الإسلام فالنفس مفطورة على النقاء تتقبل الحق أكثر من غيره .

فإذا تركت وشأنها فإنها تستمر على الحق النقى ولكن إذا شابتها شوائب الكفر تكدرت بها وزاغت عن نقائها .

ومهما يكن من أمر فان استعداد الانسان للخير والشر يطرح قضية التكليف لأنه عن طريق تكليفه بأعمال وعبادات معينة يستطيع أن يزكى نفسه ويحتفظ بنقاء فطرته . وعن طريق إتيانه لأعمال أخرى يستطيع أن يكدر هذه الفطرة ويخرجها عن نقائها

---

(١) سورة الشورى الآية ٥٢

(٢) ابن رجب. جامع العلوم والحكم تحقيق د. محمد الأحمدى أبوالنور حـ ٣ ص ٦٨ ، ٦٩ ط الحلبى — القاهرة .





فالإنسان إذن هو الكائن الحى الوحيد المكلف والمسئول المختص بالعقل الذى يكون به مستعداً للفعل .

وإذن الخصائص الأساسية التى يختص بها هى :

١ — التكليف والمسئولية ومايتبع ذلك من أخلاق .

٢ — العقل وما يتبعه من العلم .

وبالمسئولية والعلم يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات .